الباب الثاني

الدولة العبيدية في مصر وازدهار الدولة

طمع عبيدالله المهدي في اتخاذ مصر قاعدة للهجوم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومن ثم فقد وجّه ابنه سنة ٣٠١ هجرية على رأس جيش من المغاربة استولى على برقة ثم ناوش الإسكندرية لكنه لم يفلح في أخذها فعاد إلى قاعدة الحكم في بلاد المغرب.

ثم عاود عبيدالله المحاولة سنة ٣٢١هجرية بعد وفاة المقتدر العباسي، لكن الإخشيد أفلح في هزيمة جيش العبيديين في جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هجرية فاضطر إلى العودة إلى بلاد المغرب بعد وفاة عبيدالله بشهرين.

وما إن توفي كافور سنة ٣٥٧ هجرية واضطربت أحوال مصر وتولى أبوالفوارس أحمد حفيد الإخشيد وكان غلاماً حدثاً في الحادية عشرة حتى قبض الوزير جعفر بن الفرات أمور مصر، بَيْدَ أنه لم يفلح في إصلاح زمام الأمور، كما حلّ الجدب والقحط والأوبئة بسبب انخفاض النيل، وهنا وجدها المعز لدين الله -الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه المنصور سنة ٣٤١ هجرية- فرصة للوثوب على مصر وابتلاعها.

obeikandl.com

وفي الرابع عشر من ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هجرية انطلقت جيوش الدولة يقودها جوهر الصقلي حتى وصلت إلى الإسكندرية واستولت عليها دون مقاومة تذكر، وهنا سعى الوزير ابن الفرات إلى مهادنة قوات الصقلي، فكتب له جوهر كتاب أمان إلى المصريين نصّ فيه على أن لا يلزم الشيعيون أهل مصر باعتناق مذهبهم، وأن المصريين أحرار في اعتناق المذهب الشيعي أو الاستمرار في ممارسة شعائرهم على أساس مذهب أهل السنة.

ومن هنا بدأ حكم دولة المعز لمصر، التي أنهت حكم دولة الإخشيد فيها.

حين استقرت الأمور لجوهر في مصر نشط إلى إنشاء مدينة جديدة تكون قاعدةً للملك ونشر الدعوة الإسماعيلية في مصر والشرق.

انتقى جوهر للمدينة الجديدة بقعة شمال الفسطاط ووضع لها الأساس ليلة السابع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هجرية وأطلق عليها اسم المنصورية إحياء لذكرى الخليفة المنصور والد المعز لدين الله.

ولما دخل المعز المدينة سنة ٣٦٢ هجرية أطلق على المدينة اسم القاهرة.

تعود تسمية القاهرة بذلك الاسم لأنها تقهر الأعداء، وكان بسورها عدة أبواب هي: باب النصر، وباب الفتوح، وباب زويلة.

obeikandl.com

لكن كيف ظهر الجامع الأزهر إلى الوجود؟!

شرع جوهر الصقلي في بناء مسجد تنطلق منه الدعوة الإسماعيلية ويكون مركزاً للدعوة، ونشط لتحقيق ذلك الهدف في اليوم الرابع من رمضان سنة ٣٥٩ هجرية واستمر بناؤه عامين، وأقيمت فيه الصلاة أول مرة في رمضان سنة ٣٦١ هجرية.

أطلق على المسجد اسم مسجد القاهرة، ثم لم يلبث جوهر الصقلي أن أسماه بالجامع الأزهر نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ.

فانتساب خلفاء هذه الدولة إلى فاطمة -رضي الله عنها- لم يعرف إلا حين قدم هؤلاء واستقروا في القاهرة، ونسبوا أنفسهم إلى آل بيت النبي ﷺ ليستميلوا الناس إلى دعوتهم العجيبة.

الحقيقة أن عبء إقامة الدولة في مصر يقع على أكتاف ذلك الرجل الصقلي الذي أبطل الخطبة للخلفاء العباسيين في خطب الجمعة، وأمر الخطباء بالدعاء للحاكم المعز لدين الله، كما ضرب النقود باسم الملك العبيدي، ومنع على المصريين ارتداء الزي الأسود شعار العباسيين، وأضاف في الأذان عبارة: «حي على خير العمل»، وهو من الإضافات الشيعية. وإن كانوا عن الشيعة بعيدين أيضاً.

obeikandl.com

وسارع ذلك الخادم المخلص بالكتابة إلى سيده المعز يستدعيه إلى القاهرة ليتولى الحكم، فأقبل الملك العبيدي ودخل الإسكندرية سنة ٣٦٢ هجرية، وألقى خطبة أوضح فيها أنه جاء إلى مصر ليرد الحق إلى نصابه، وليحمي الحجيج ويجاهد الكفار، ويعمل بما أوصاه به رسول الله ﷺ.

ثم غادر المعز الإسكندرية منطلقاً إلى القاهرة فدخلها في رمضان من العام نفسه.

سُرَّ أهالي القاهرة بالحاكم الجديد وسارعوا يقدمون الهدايا إليه، فأمر المعز بإقامة الحفلات احتفالاً بتلك المناسبة.

ثم نظر المعز لدين الله نظرة خاصة في الأمور فوجد أن جوهر الصقلي قد تمتع بالكثير من المزايا دون الحاكم ومن ذلك إدارة الدواوين وجباية الخراج. فاستدعاه إليه وسلبه الدواوين والخراج ليديرها بنفسه؛ وبذلك استأثر المعز بالسلطان وأسدل الستار على جوهر الصقلي ليبقى في دائرة الظل.

وبدأ نجم المعز في الصعود والتألق في سماء الشهرة والمجد.

وعندما بدأ الملك المعز حكمه في القاهرة سعى إلى تحويل المصريين إلى المذهب الشيعي اسمًا وهو الإسماعيلية حقيقةً وصرفهم عن مذهب أهل السنة.

سلك المعز في ذلك عدداً من الوسائل لإغراء المصريين على اعتناق المذهب الإسماعيلي، ومن ذلك اختصاص أدعياء التشيع بالمناصب العليا في الدولة وبخاصة القضاء، وبإحياء شعائر الشيعة في المساجد العظيمة كمسجد عمرو بن العاص والجامع الأزهر، والاحتفال بالعاشر من المحرم (ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء)، والاحتفالات الشيعية الأخرى، لكن ذلك كله أثار استياء المصريين فنشطوا إلى إحياء شعائر دينية نكاية في العبيديين، فاحتفلوا بيوم دخول الرسول ﷺ، وأبي بكر الصديق إلى غار ثور الذي يوافق السادس والعشرين من ذي الحجة.

وبدأ الصدام لأول مرة بين المصريين والعبيديين على ذلك النحو.

والآن لابد أن نتحدث عن عقائد العبيديين لنعرف ما فيها من ضلال وكذب ودسّ على الإسلام وأهله.

كانت عقائد العبيديين مزيجاً من عدة مذاهب قديمة وديانات انتشرت في ديار الإسلام تحت تأثير امتزاج المسلمين بالشعوب الأخرى، لجأ العبيديون إلى هذه الآراء والمذاهب والديانات وصبغوها بصبغة إسلامية وعملوا على نشرها في شتى البقاع تحت ظلال المملكة الفاطمية.

obeikandl.com

نقل العبيديون عن المصريين القدماء حكاية أن روح الملك الميت تنتقل إلى العالم العلوي وتصبح من الآلهة وحوّروها إلى أن روح الإمام تصبح من الملائكة وعقلاً روحياً مدبراً للكون، كما نقلوا عن فلاسفة اليونان ادعاءهم أن الإنسان لا يدرك ما في الكون بغير مساعدة الأفلاك السماوية، فقالوا: إن العقل الإنساني لا يدرك شيئاً إلا بمساعدة أرواح الأئمة، كما تابعوا أولئك الفلاسفة بالقول بأن النفس صفحة بيضاء، وأنها إذا حلت في جسم نقش عليها ما اكتسبه الإنسان من خير أو شر.

ونشطت الإسماعيلية (وهي أساس العقيدة العبيدية)، إلى تبني عقيدة الأدوار السبعة نقلاً عن اليهود الذين ينتسبون إليهم حقيقةً، وإلى خلق العالم بواسطة الكلمة نقلاً عن الأفلاطونية الحديثة، وكذلك نظرية الفيض والإشراق، كما أخذت عن الزرادشتية مذهب التخميس وعن الفيثاغورثيين مذهب التوحيد، وأن العدد هو أصل العقيدة.

ثم كانت الطامة الكبرى بنظرية الإمام المستور، وأن أدوار الإمامة سبعة، انقضى الدور الأول بإسماعيل بن جعفر الصادق وبدأ الدور الثاني بابن إسماعيل وهو محمد، والدور يبدأ بالأساس بعد الناطق محمد ﷺ، أما الأساس فهو علي بن أبي طالب، ثم يأتي القائمون، ومتى انقضى الدور تلاه دور آخر فيه ناطق وأساس وأئمة وهكذا إلى ما لا نهاية.

كم يا ترى عدد النقباء..؟ إنهم اثنا عشر نقيباً، وهم أسس الدعوة الشيعية، ولكل نقيب من النقباء أربعة وعشرون داعية يشككون المسلمين في عقائدهم، وفي مرحلة متأخرة نجد أن الدعوة العبيدية مرتبة على نحو عشري يبدأ بالناطق وهو صاحب رتبة التنزيل، فالأساس وله رتبة التأويل، ثم الإمام وله الأمر، والباب وله فصل الخطاب، والحجة وله الحكم، وداعي البلاغ وله الاحتجاج، والداعي المطلق وله تعريف الحدود العلوية، والداعي المحدود وله تعريف الحدود السفلية، والمأذون المطلق وله أخذ العهود، وينتهي بالمأذون المحدود الذي يكاسر الناس بالأسئلة ويشكك في عقائدهم(*)..

لم يتوان العبيديون في اتخاذ المساجد لنشر الدعوة الإسماعيلية وبث مذهبهم الهدام، ومن هنا حرصوا على الإكثار من بناء المساجد، فكان بناء الأزهر وجامعه لهذا الغرض، ولقد تم تجديد الجامع الأزهر عدة مرات على أيدي خلفاء: المعز لدين الله، العزيز بالله، والمستنصر بالله، والحافظ لدين الله. ويعد الأزهر أقدم جامعة إسلامية، بل إن داعي الدعاة كان يعقد درساً

(*) راجع كتاب د. محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ١٦-٢٣، وكتاب: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ٣، ص٢٨٤-٣٠٥.

obeikandi.com

خاصاً للنساء، لكن فقهاء وقضاة أهل السنة والجماعة كانوا يشاغبون على القاضي والفقيه العبيدي في المسجد.

وها هو العزيز بالله يتولى الحكم سنة ٣٦٥ هجرية فيعنى كأبيه المعز لدين الله بنشر المذهب الشيعي اسمًا والفكر العبيدي حقيقةً، وقصر المناصب المهمة في الدولة على أتباع الفكر العبيدي، واضطهد أهل السنة والجماعة، وأصبح لزامًا على أهل السنة إن أرادوا تقلد بعض المناصب الصغيرة أن يمتثلوا لأحكام المذهب الإسماعيلي.

ولعلّ التاريخ الإسلامي لم يظفر بشخصية غامضة أعجب من شخصية الحاكم بأمر الله العبيدي (٣٨٦ / ٤١١هـ)، ابن العزيز بالله الذي تولى سنة ٣٨٦ هجرية، والذي تؤلهه طائفة الدروز.

أما مثار العجب في تلك الشخصية فهو أنه أصدر مرسوماً للتوفيق بين السنة والشيعة بمقتضاه أصبح لكل من الفريقين حريته المطلقة في أداء شعائره الدينية، وأجاز للشيعة أن يصوموا رمضان دون أن يتقيدوا برؤية الهلال، وأن يكبّروا على الميت خمس تكبيرات بدلاً من أربع، كما نهى عن سبّ الصحابة في سبيل تخفيف الخلاف الذي يقع نتيجة السب.

كما اشتد الحاكم بأمر الله مع أهل الذمة المقيمين في مصر، فحتَّم عليهم سنة ٣٩٥ هجرية ارتداء ملابس خاصة وهدم بعض كنائسهم (مخالفاً بذلك ما

جرى عليه أسلافه كالمعز من إكرامه أهل الذمة واتخاذهم وزراء وأطباء خصوصيين بالقصر، حتى لقد عهد إلى يعقوب بن كلس اليهودي بالدواوين).

وعلى الرغم من أن العزيز بالله قد تزوج نصرانية إلا أن ذلك لم يشفع للنصارى الذين بالغ الحاكم بأمر الله في التنكيل بهم، إلى حد أنه منعهم من الاحتفال بعيد النيروز على شواطئ النيل.

وكان لتلك السياسة أثرها في دخول كثير من أهل الذمة في الإسلام، وإلى هجرتهم إلى الحبشة وروما.

لكن العجب العجاب أن يصدر الحاكم بأمر الله مراسيم تطلق للنصارى واليهود الحرية في أداء شعائرهم، وترد إليهم ما صودر من أموالهم وتعطيهم حق بناء الأديرة والكنائس سنة ٤١١ هجرية.

بل الأغرب من ذلك أن نعرف أن الحاكم بأمر الله الذي تولى الحكم وعمره نحو الحادية عشرة استطاع أن يتخلص من الوصي عليه برجوان الصقلبي الذي طمح إلى الاستئثار بالسلطة، وأن الصبي عرف حرص برجوان على عزله عن الاتصال برجال الدولة؛ فأوعز إلى أحد قواد أبيه واسمه الحسين بن جوهر بقتل الصقلبي ففعل، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هجرية على ما جاء في خطط المقريزي الجزء الثاني.

الغريب أن ذلك الرجل حرص بنفسه على التجول في القاهرة ليلاً للوقوف على مظالم الناس، وأمر بتعليق الفوانيس على أبواب الحوانيت في طرقاتها لذلك الغرض، كما منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلاً، وكذلك منعهن من الخروج وراء الجنائز، وأصدر أمره إلى صانعي الأحذية بمنعهم من صنع أخفاف للنساء.

وحرّم الحاكم الملاهي وأمر بإتلاف أشجار الكروم، وذبح الأبقار في غير عيد الأضحى، وذلك بهدف الإكثار من الماشية، ومنع أن يخزّن الناس المؤن، وإلا تعرضوا لعقوبة الموت.

كيف نستطيع فهم ذلك الرجل العجيب ومعظم المصادر التاريخية التي عرضت لسيرته تبرزه مجنوناً وشاذاً ومتقلّباً؟! لقد سعى الحاكم إلى إنزال العقاب الصارم بمن يعصي أوامره؛ مما وطّد أركان سلطانه وقضى على عناصر الثورة في دولته، كان رجال الدولة يهابونه ويخافون شخصيته المتقلّبة، حتى إنهم طلبوا منه أماناً فأجابهم إليه وفيه: أمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تهديد بسوء إليكم إلا في حد يقام بواجبه، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك، وليعول عليه إن شاء الله تعالى.

لكن شخصية الحاكم ذاته كانت على التقشف والزهد؛ فقد نهى عن إقامة الزينات، وقرع الطبول ونفخ الأبواق له وهو في طريقه إلى المصلى الذي بناه لنفسه في جبل المقطم.

واشتد في مطاردة من يعبثون بالأمن وطهّر القضاء من الرشوة.

وكان للحاكم ولع بمطالعة النجوم ورصد الكواكب، ودس الجواسيس على الناس في الأسواق والدور يرفعون إليه تقاريرهم عن الناس.

لكن للآن لا يستطيع أحد التكهن بنهاية الحاكم بأمر الله الذي اختفى بطريقة مثيرة، وذلك في السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ هجرية حين ركب قاصداً مصلاه في جبل المقطم ولم يعد إلى قصره.

ولقد اتهم بعض المؤرخين أخته ست الملك بأنها دّبرت مؤامرة لقتله؛ لأنه أطلق لسانه في سيرتها، ومن ذلك أبو المحاسن بن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة الجزء الرابع.

كان الحاكم بأمر الله العبيدي شيطانًا مريداً جباراً عنيداً كثير التلون، سفّاكًا للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدّحًا، له شأن عجيب ونبأ غريب، كان فرعون زمانه يخترع كل وقتٍ أحكامًا يلزم الرعية بها، أمر

بسبّ الصحابة -رضي الله عنهم-، وبكتابة ذلك على أبواب المساجد والشوارع، وأمر عماله بالسبّ، وبقتل الكلاب. أبطل الفقاع والملوخية، وحرّم السمك الذي لا قشر له، حرّم بيع الرطب، أمر النصارى بتعليق الصلبان في رقابهم، وألزم اليهود أن يعلقوا قرمية في رقابهم، هدم كنائس مصر، فأسلم عدد من أهل الكتاب، نهى عن تقبيل الأرض، وعن الدعاء له في الخطب، نفى المنجمين، منع النساء من الخروج من البيوت، ثم عاد فأمر بإعادة بناء الكنائس، وبتنصر من أسلم، أظهر التفقه، وطلب فقيهين يدرسان مذهب الإمام مالك ثم عاد فقتلهما صبراً.

وقد حُبّب في الآخر إلى الحاكم العزلة، وبقي يركب وحده في الأسواق على حمار، ويقيم الحسبة بنفسه، وبين يديه عبد ضخم فاجر، فمن وجب عليه تأديب، أمر العبد أن يولج فيه، والمفعول به يصيح(*).

وأمر بحريق مصر، واستباحها، ثم بعث خادمه ليشاهد الحال، فلما رجع، قال: كيف رأيت؟ قال: لو استباحها طاغية الروم ما زاد على ما رأيت، فضرب عنقه.

(*) سير أعلام النبلاء عن تاريخ ابن إياس ١/٥٣.

وولي للحاكم عدة أمراء ما كان يدع النائب يستقر حتى يعزله.

وأبطل الحاكم عمل المنجمين، وأعتق أكثر مماليكه، وجعل ولي عهده ابن عمه عبدالرحيم بن إلياس ووصل إلى مصر عام ٤٠٥هـ حمزة بن علي بن أحمد الزوزني(*) ويبدو أنه دخل في خدمة الحاكم الخصوصيين ثم أصبح من دعاة الإسماعيليين الذين انتشروا في مصر بشكل واسع، وجهر بالدعوة إلى ألوهية الحاكم عام ٤٠٨هـ، فثار الناس عليه فاختفى في قصر الحاكم أو خارجه مدة سنةٍ ثم هرب إلى وادي التيم في لبنان حيث تقيم بطون من تنوخ وتدين بالولاء للعبيديين.

ثم ظهر الحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف باسم الأخرم عام ٤٠٩هـ وقال بألوهية الحاكم أيضًا، ولكنه لم يلبث أن قُتل، وكذلك ظهر محمد بن إسماعيل الدرزي (نشتكين) وهو أول من كشف ألوهية الحاكم والدعوة إليها، وذلك عام ٤٠٧هـ، وهو العام الذي وصل فيه إلى مصر، ويبدو أنه قتل بمجرد أنه قال بذلك، ومنهم من يقول: إنه اختفى في القصر حتى هدأ الجند ثم فرّ إلى بلاد الشام حيث استقر في إحدى قرى بانياس جنوب وادي التيم ونافس حمزة بن علي فكان سببًا في قتله عام ٤١١ هـ.

(*) ولد حمزة بن علي في بلدة (زوزن) من أعمال خراسان.

عمل الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ / ٤٢٧هـ)، الذي تولى مكان أبيه الحاكم بأمر الله عقب اختفائه سنة ٤١١ هجرية على اكتساب عطف أهل الذمة، فأعلن في بيان رسمي أن أهل الذمة أحرار في عقائدهم وشعائرهم، وأنه لا إكراه في الدين فمن شاء أن يدخل في الإسلام برغبته وقلبه دخل، ومن أراد أن يظل على دينه فإن له من الدولة الذمة والحماية.

خفّ الشعور العدائي تجاه العبيديين، وقرّت أعين أهل الذمة، كثر منذ ذلك الحين الاعتماد عليهم في الدولة، بل إن طائفة الأَرْمَنْ أصبحوا مطلقي السلطان حين قدموا مع قائدهم بدر الجمالي إلى القاهرة زمان الملك المستنصر، وقلّده الملك الوزارة وجعله أميراً للجيوش.

والآن نتحدث عن اعتماد الدولة العبيدية على العناصر الأجنبية وكيف أضعف ذلك من نفوذ الحكام وسيطرتهم وسلطانهم.

كان معظم جند جيش المعز لدين الله العبيدي من الصقالبة والمغاربة والديلم والترك، وجنود مرتزقة من السودان، وفي أيام الظاهر تعاظم وجود الترك والمغاربة. فالمغاربة هم الذين قامت على عواتقهم الدولة أيام نشأتها في المغرب ثم في مصر، وكان المغاربة عصب الدولة الذين دافعوا عن عبيدالله المهدي، ودخلوا ضمن جيش المعز لدين الله العبيدي الذي دخل مصر.

وسرعان ما استبد المغاربة بالأمر وعاثوا فساداً في طرقات القاهرة، ونهبوا الحوانيت وحاربوا الترك الذين تغلبوا عليهم زمان المستنصر بالله.

أما السودان فقد ظهر خطرهم على الدولة أيام الظاهر لإعزاز دين الله، ولما ثاروا وعاثوا في الأرض فساداً سعت الدولة إلى كبح جماحهم وقضت على ثورتهم سنة ٤١٥ هجرية.

وأما الترك الذين شكلوا مركز قوة في جيش العزيز بالله، وجاهر قائدهم ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبي بالإساءة إلى المستنصر بالله وحاول عزله، فخرج على رأس جيش كبير وهزم ابن حمدان هزيمة ساحقة اضطرته إلى الفرار إلى البحيرة.

لم يلبث ناصر الدولة أن راسل أعداء الدولة من السلاجقة يزيّن لهم احتلال القاهرة، فعاود الخروج إليه لكن انهزم جيش الملك. وتعاظم أمر ناصر الدولة حتى لقد مضى في مناوأة الدولة وحال دون وصول المؤن والإمدادات من أقاليم الدولة إلى القاهرة، ثم كانت الطامة الكبرى بانتشار المجاعة إثر انخفاض النيل سنة ٤٥٧ هجرية والتي استمرت سبع سنوات حتى وصل ثمن رغيف العيش أربعة عشر درهماً وثمن البيضة الواحدة ديناراً.

خشي الأتراك أن يستبد قائدهم ناصر الدولة بالأمر بأن يزيل الدولة

العبيدية، ويستبدلها بالخلافة العباسية فسعوا إلى الخلاص منه، وأفلحوا باغتياله بالسيف كما تخلصوا من أسرته فرداً فرداً.

لكن استبداد الترك بأمور الدولة حمل المستنصر سنة ٤٦٥ هجرية على استدعاء بدر الجمالي والي عكا إلى القاهرة ليتولى أمور الدولة ويصلح ما فسد منها، ووافق المستنصر على طلب الجمالي بأن يصطحب معه من يشاء من الجند وعساكر الشام ليستعيض بهم عن جند الدولة بمصر من أتراك ومغاربة وسودان.

بدر الجمالي داهية لا يبارى:

لقد رحب به الخليفة المستنصر، وقلّده الوزارة وجعله أميراً للجيوش.

كان بدر الجمالي مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار ومنه لقب بالجمالي، وسرعان ما أدى به طموحه وقوة عزيمته إلى أن ولي إمارة دمشق من قبل المستنصر بالله العبيدي سنة ٤٥٥ هجرية، ولما بلغه مقتل ولده شعبان بعسقلان سنة ٤٦٠ هجرية خرج إليها بجيش كبير فانتهز العساكر غيبته وخربوا قصره انتقاماً منه لشدته عليهم.

لما بلغ المستنصر ما حصل للجمالي ولاّه على عكا وظل بها إلى أن استدعاه المستنصر بعد خمس سنين للقدوم إلى القاهرة ليوليه الوزارة.

وصل الجمالي إلى قليوب فنزل بها وأرسل إلى المستنصر يقول: لا أدخل إلى مصر حتى تقبض على الأمير بلدكوش.

وكان ذلك الأمير قد غلب على الأمور في مصر، فبادر المستنصر باعتقاله.

ودخل بدر الجمالي القاهرة في جمادى الأولى من السنة نفسها، وقبض على الأمراء جميعًا. لقد دعاهم إلى وليمة بمنزله، ثم أوعز إلى أصحابه أن يصطادوهم واحداً واحداً حين يستأذنون في الانصراف.

ولم يلبث جنود الأرمن أن أعملوا السيوف في الضيوف، ولما طلع النهار كانت مصر قد خلصت من شر الأمراء الوبيل.

وأباح الجمالي لأصحابه أن يستولوا على ما تركه الأمراء من إقطاعات ودور وأموال، وبذلك ضمن الداهية ولاء أصحابه له فقويت شوكته وعظم أمره.

سُرَّ المستنصر بما فعله بدر الجمالي؛ فخلع عليه الطيلسان وقلّده وزارة السيف والقلم وإمارة الجيوش.

تابع الجمالي المفسدين فقضى عليهم، وأعمل السيف فيمن ناوأه من

المصريين من القضاة والوزراء، وتابع بهمة ونشاط قبائل لواتة وأفنى الكثيرين منهم.

ثم نزل إلى الإسكندرية وحاصرها في شهر المحرم سنة ٤٧٧ هجرية حين ثار أهلها على الدولة، واقتحمها عنوة ونكّل بأهلها تنكيلاً شديداً، وأعاد تعمير مسجد العطارين بعد عامين.

لم يكف ذلك الرجل الداهية عن متابعة حملة التطهير، فسار إلى الصعيد وحارب القبائل الخارجة على النظام هناك مثل جهينة والثعالبة، وأعمل فيها القتل وغنم أموالهم الكثيرة، وبذلك أصلح أحوال مصر.

لقد استطاع ذلك الرجل أن يعيد إلى مصر أهم ما ينقصها وهو أمنها واستقرارها.

ولم يهمل الرجل القاهرة فقد وسعها شمالاً وجنوباً، وسمح للناس بأن يسكنوا فيها، وامتد العمران فيها إلى أطرافها وخارج أسوارها، وبنى الناس وعمروا وسكنوا، وعرفت القاهرة في عهد الجمالي أزهى عصورها.

وشيد الجمالي مسجداً على حافة جبل المقطم سنة ٤٧٨ هجرية بناه لأول مرة بالحجارة، وتعد مئذنته أقدم مآذن الدولة العبيدية بالقاهرة، ويعرف المسجد اليوم بمسجد الجيوشي.

سعى الجمالي لمحاربة الشام، لكن لم يلبث أن توفي سنة ٤٨٧ هجرية ودفن خارج باب النصر، وقام بالأمر من بعده ابنه الأفضل.

يعد الجمالي أعظم الوزراء العبيديين؛ فقد غير في خطة الوزارة، وسلب الملك العبيدي الضعيف سلطته واستأثر بكل السلطات، فكان صاحب الكلمة في أمر السلم والحرب وإدارة جميع شؤون الدولة العبيدية العسكرية والمدنية، وكان بيده تولية المناصب الرفيعة في الدولة، وإقالة من يشاء من الأمراء.

obeikandl.com

obeikandl.com